المنهج التّداولي

مقياس: مناهج البحث اللساني **الأستاذ لخضر روبحي**

السنة الأولى ماستر **جامعة المسيلة**

تعدّ التداولية أحد أهم المناهج اللغوية الحديثة التي صحّحت مسار علم اللغة الحديث، حيث تداركت العديد من نقائصه. فهي تيار لساني يدرس استعمال اللغة بدل دراسة اللغة في مستوياتها المختلفة، حيث "تنطلق التداولية من أنّ الوقوف بالدراسة اللسانية عند حدود بنية اللغة، لا يمكّن من فهمها والوقوف على أكبر قدر من حقائقها.لذلك تدعو إلى ضرورة أن تشمل الدراسة وظيفتها أيضا، وهو ما يعني الدّعوة إلى دراسة اللغة في الاستعمال، أي دراستها وهي تؤدّي وظيفتها التواصلية" .[1]

تعريف التداولية:

1-لغة: تطالعنا المعاجم اللغوية بأنّ مفهومها اللغوي من الجذر "دول" يحمل معاني متعددة:

جاء في مقاييس اللغة على أصلين: أحدهما يدلّ على تحوّل الشيء من مكان إلى آخر، والآخر يدلّ على ضعف واسترخاء. قال أهل اللغة: اندال القوم إذا تحولوا من مكان إلى مكان، ومن هذا الباب تدوال القوم الشيء بينهم، إذا صار من بعضهم إلى بعض، والدولة لغتان: ويقال: بأنّ الدُولة في المال، والدَّولة في الحرب، وإنّما سميتا بذلك من قياس الباب، لأنّه أمر يتداولونه، فيتحول من هذا على ذاك، ومن ذاك إلى هذا.[2]

يقول الزمخشري (ت538هـ):"دالت له الدولة. ودالت الأيام بكذا...والله يداول الأيام بين الناس مرة لهم ومرة عليهم"[3]، فهي بمعنى الرجوع والتنقل.أي أنّ التداولية تتجلّى في الكلام المتبادل بين مستعملي اللغة، وما تعتريه من تغيّرات تتماشى والسياق الذي وردت فيه.

وعرّفها طه عبد الرحمان بالقول:" تداول الناس كذا بينهم،يفيد معنى تناقله الناس وأداروه فيما بينهم. ومن المعروف أيضا أنّ مفهوم النقل والدوران مستعملان في نطاق اللغة الملفوظة...فيقال نقل الكلام عن قائله يعني رواه عنه...ويقال دار على الألسن بمعنى جرى عليها...فالنقل والدوران يدلّان في استخدامهما اللغوي على معنى التواصل،وفي استخدامهما التجريبي على معنى الحركة بين الفاعلين...فيكون التداول جامعا بين اثنين هما التواصل والتفاعل، فمقتضى التواصل يكون القول موصولا بالفعل"[4].

2-اصطلاحا: لعلّ محاولة الوقوف على تعريف موحّد للتّداولية، يعدّ من الصعوبة بمكان نظرا لتنوّع مشاربها الفكرية والثقافية، فتعدّدت التعريفات بحسب تخصّصات الباحثين في شأنها.وكلّها يصبّ في فاعليّة اللغة مرتبطة بالاستعمال.ذلك أنّ البحث اللساني انتقل من الدراسة التي تخلص للنظام اللساني " langue " من دي سوسير إلى تشرمسكي إلى دراسة لسانية تركّز على التّوجّه الاتّصالي والوظيفي بالبحث في الكلام parole والاستعمال اللغوي، وهذه بعضها:

تعريف"جاك موشلار"Jakue Mochler" و"آن ربول"Anne Reboul بأنّها:"دراسة الاستعمال اللغوي المقابلة لدراسة النظام اللساني الذي يعدّ من اهتمام اللسانيات بصفة خاصة" [5] وفي ذلك ربط واضح للتداولية بالمجال اللساني.

تعريف"ماري دير" Marie Diller" و"فرانسوا ريكاناتي" Francoi Recanati "التداولية هي دراسة استعمال اللغة في الخطاب شاهدة على ذلك مقدرتها الخطابية" [6] . فالتداولية في نظرهما تحاول الكشف عن المقدرة الإبلاغية التي تحقّقها العبارة اللغوية، وتدرس اللغة في الاستعمال.وهي بذلك:

-علم يهتم بدراسة اللغة الإنسانية في الاستعمال والوظيفة.

-الدراسة اللغوية للخطاب في السياق، ومن ثمة هيأة الكلام بين المرسل والمرسل إليه.

-تسعى التداولية إلى الكشف في المقدرة الابلاغية التي تحقّقها العبارة اللغوية.

تعريف الجيلالي دلاش"Dalash":إنّه تخصّص لساني يدرس كيفية استخدام النّاس للأدلّة اللغوية في صلب أحاديثهم وخطاباتهم، كما يعني من جهة أخرى بكيفية تأويلهم لتلك الخطابات والأحاديث" [7] فهي إذن ظاهرة خطابية وتواصلية واجتماعية،تتوقّف على الحوار والتبليغ.

تعريف مسعود صحراوي:"...وهو مذهب لساني يدرس علاقة النشاط اللغوي بنجاح، والسياقات والطبقات المقامية المختلفة التي ينجز ضمنها"الخطاب" رسالة تواصلية واضحة وناجحة، أو البحث في أسباب الفشل في التواصل باللغات الطبيعية"[8]. وهو بذلك يركّز على القدرات الإنسانية للتواصل اللغوي.

تعريف صلاح فضل:"التداولية هي الفرع العلمي من مجموعة العلوم اللغوية التي تختص بتحليل عمليات الكلام بصفة خاصة ووظائف الأقوال اللغوية وخصائصها خلال إجراءات التواصل بشكل عام"[9].

نشأة التداولية: يعود الفضل الأول في استحداث مصطلح التداولية للفيلسوف الأمريكي "شارل بيرس" "Charls Pierce"، من خلال نشره لمقالة له تحت عنوان: كيف نجعل أفكارنا واضحة؟. غير أنّ الاستعمال الأول لهذا المصطلح كان سنة 1938م على يد الفيلسوف الأمريكي "شارل موريس" "Charls Moris"، وتمثّل التداولية حسب رأيه إحدى نواح ثلاثة يمكن معالجة اللغة من خلالها: [10]

1 - التركيب la syntaxe

2 - الدلالة la sémantique

3 - التداولية pragmatique

وعن هذا المصطلح الغربي (pragmatique) يقول طه عبد الرحمان:" وقد وقع اختيارنا منذ 1970 على مصطلح (التداوليات) مقابلا للمصطلح (براغماتيقا)؛ لأنّه يوفي المطلوب حقّه باعتبار دلالته على معنيين (الاستعمال) و(التفاعل معا).[11]

وتعدّ حلقة براغ اللغوية المشهورة التي تأسست في عام 1926، هي أول من جعلت الوظيفة الأساسية للغة التبليغ والبيان (communication) والمقياس الوحيد في تفسير الظواهر اللغوية. وقد تابعتها في ذلك المدرسة الوظيفية التي يتزعمها أندري مارتيني والمدرسة الدانماركية المشهورة التي يتزعمها لويس همسليف.

وعلى الرغم من ظهور مصطلح (التداولية) منذ أمد بعيد، فإنّ هذا النوع من الدراسة الذي دعا إليه شارل موريس، لم يشرع فيه إلا في مطلع الستينات من القرن العشرين.

أمّا دواعي ظهور هذا التوجه اللساني فهي عديدة، أهمها ثورة العديد من اللسانيين على المناهج الشكلية التي هيمنت على الدراسات اللغوية على امتداد النصف الأول من القرن العشرين، حيث أنّ القطيعة التامة التي أحدثتها البنيوية بين العلامة اللغوية وغيرها من العلامات غير اللغوية، هو الذي كان وراء ظهور التداولية التي اضطلعت بإعادة اللحمة بين البنية النحوية الكامنة في اللغة، وبين استعمالها في العملية التواصلية. و"ينبغي أن نسجل أن التداولية نشأت نشأت كرد فعل للتوجهات البنيوية فيما أفرزته من تصورات صورية مبالغ فيها خاصة عن اللساني الأمريكي تشومسكي وأتباعه، وكذلك الغلو في الاعتماد عند وصف الظواهر اللغوية على التقابل المشهور الذي وضعه دي سوسير بين اللغة والكلام، حيث أبعد الكلام الذي يمثل الاستعمال الحقيقي للغة ونظامها".[12]

وظائف التداولية: يعدّ التداول ظاهرة خطابية وتواصلية واجتماعية في وقت واحد، ولذلك تأتي التداولية لتدرس كل شيء إنساني في العملية التواصلية سواء أكان نفسيا، أو بايلوجيا، أو اجتماعيا. ومن ثمة فهي تهتم بالوظائف التالية:

- دراسة استعمال اللغة.
- يسعى التحليل التداولي لمراعاة ذهنية السامع (المتلقي) أثناء عملية التخاطب
- تسعى التداولية لتحقيق العملية التواصلية، مع مراعاة الظروف المحيطة بالتفاعل التخاطبي.

ولما كانت التداولية تسعى لأن تتجاوز حدود الخطاب لتصير منهاجا عاما للفعل والنشاط الإنساني، وهي تشتغل بدراسة اللغة في مقام يهتم ويبحث فيما يفعله المستعملون بالألفاظ، فإنّها بذلك تهتم بالأسباب التي تتضافر لتؤدي إلى نجاح المتحاورين أثناء إجراء المحادثة أو التخاطب. وهي بذلك تسعى نحو الإجابة عن بعض الإشكالات:

- من يتكلم؟
- من هو المرسل إليه؟
- ما قصديتنا أثناء الكلام؟
- كيف نتكلم بشيء ونسعى لقول شيء آخر؟
- ماذا علينا أن نفعل حتى نتجنّب الإبهام والغموض في عملية التواصل؟